اللغةُ العَرَبيَّةُ
والحِفَاظُ علَى الهُوِيَّة

إعداد الدكتور
محمد عبد الفتاح عبد القادر محمد
مدرس أصول اللغة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة ـ جامعة الأزهر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ المرسلينَ وخاتَمِ النبيينَ، ورحمةِ الله للعالمينَ، سيدِنا محمدٍ النبيِّ المبعوثِ الأمينِ وعلى آله وأصحابِه والتابعينَ، ومن سار على نهجِه واتبع سنتَه بإحسانٍ إلى يوم الدينِ ... وبعد:

فإن اللغةَ من أفضل السبل لمعرفة شخصيةِ أيِّ أمةٍ وخصائصِها، وهي الأداةُ التي يمكن من خلالِها تسجيلُ أفكارِها وأحاسيسِها، فهي البيئة الفكرية التي تعيش فيها ، وحلقةُ الوصلِ التي تربطُ الماضيَ بالحاضرِ، والحاضرَ بالمستقبل.

ولغتنا العربية هي ركنٌ ثابتٌ من أركانِ شخصيتِنا ، فيحقُ لنا أن نفتخرَ بها ونعتزَ بها، ويجب علينا أن نذودَ عنها ونُولِيها عنايةً فائقةً، ويتمثل واجبنا نحوها في المحافظةِ على سلامتها وتخليصِها مما قد يشوبُها من اللحنِ والعُجْمة، وعلينا أن لا ننظرَ إليها بوصفها مجموعةً من الأصواتِ، وجملةً من الألفاظِ والتراكيبِ فقط، بل يتعين علينا أن نعتبرَها كائنًا حيًا، فنؤمنُ بقوتِها وغزارتِها ومرونتِها وقدرتِها على مسايرةِ التقدمِ في شتى المجالات، وأن نعدها مقومًا من أهم مقوماتِ حياتِنا وكيانِنا، فهي الحاملةُ لثقافتِنا ورسالتِنا والرابطُ الموحدُ بيننا والمكونُ لبنيةِ تفكيرِنا، والصلةُ بين أجيالِنا، والصلةُ كذلك بيننا وبين كثيرٍ من الأمم .

وقد توكلتُ على اللهِ تعالى وعقدتُ العزمَ على أن أقدمَ بحثًا يدور محوره حول (**علاقة اللغة الأم بالانتماء الوطني**)، فكان هذا البحثُ الذي جاءَ تحت عنوانِ : [**اللغةُ العربيةُ والحِفاظُ على الهُوِيَّة**]

وقد اقتضت طبيعةُ هذا البحثِ أن يقعَ في (مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وثلاثة مباحث) على النحو التالي:

المقدمة: وفيها بيانٌ لخطةِ البحثِ، وأسبابِ اختياري له بإيجاز.

أما **التمهيد**: فتناولتُ فيه مفهومَ اللغةِ الأمِ، وعلاقتَهَا بالانتماءِ الوطني والهُويَّة .

المبحث الأول: العربية نسبها وصراعها الحضاري .

المبحث الثاني: اللغةُ العربيةُ ومفهومُ الوطنية .

المبحث الثالث: وجاء الحديثُ فيه عن :

أولاً: الغَيرةِ اللغويةِ .

ثانيًا: تعلم العربية فرض عين أم فرض كفاية؟

ثالثًا: دعوى صعوبةِ العربيةِ وكيفيةِ التغلبِ عليها .

الخاتمة: وفيها بيان لما توصل إليه البحثُ وما يراه الباحثُ من توصيَّات .

التمهيد

من المعلومُ أن اللغةَ هبةٌ تميزُ الكائنَ البشري عما عداه من الكائناتِ الأخرى، يتم اكتسابُها التدريجي مع النمو الأول لخلايا الطفلِ في شهور عمرِه الأولى ، من خلال لبنِ الأمِ وصوتِها، ومن هنا جاء مصطلحُ " **لغة الأم** " الذي يُطلق دائمًا على اللغةِ التي تلقَّاها الإنسانُ بفطرتِهِ وغريزتِهِ، وتعلمها كما تعلمَ الأكلَ والشربَ والمشيَ، ربما بدون جهدٍ إراديٍ منه، ولكن من خلالِ الاستجابةِ الغريزيةِ لدوافعِ البقاءِ والتحضر.

ولهذا فإنَّ اللغةَ الأمَ تصبحُ جزءًا لا يتجزأُ من شخصية صاحبها، وتظل حتى وإن زاحمتها لغاتٌ أخرى فيما بعد، هي أقربُ اللغاتِ للتعبير عن الخلجاتِ الدقيقةِ على اختلاف ميادينِ الإرسالِ والاستقبالِ.

ومن المؤكدِ والمسلَّمِ به أن اللغةَ – وهي وعاءُ الفكرِ – تمثلُ مقياسًا خطيرًا من مقاييسِ الهُوِيَّةِ والانتماءِ، وتظل بمثابة البوتقةِ التي تجمعُ تراثَ الأمةِ، وتستوعبُ مقوماتِ فكرِها وثقافاتِها على توالى عصور التاريخ، فهي أداةُ التعبيرِ ووسيلةُ التواصلِ، وهي مادةُ التوثيقِ التي تضْمنُ لفكرِ الأمةِ بقاءه وخلودَه. ولا شك أنَّ الاهتمامَ باللغةِ القوميةِ يظَلُ مؤشرًا من مؤشرات الاهتمام بالقوميةِ ذاتها، حيث تظَلُ اللغةُ معبرةً عن الوعي الجماعي للأمةِ ، مرتبطةً-كلَّ الارتباط- بهوية أبنائِها ، معبرةً عن وحدةِ صفِّهم، ووحدةِ هدفهم، ووحدةِ فكرهم في آنٍ واحد[1] .

(١) -اللغة العربية: الهوية والانتماء د/ معمر فيصل خولي – مقال نشر في مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية .

المبحث الأول

العربية نسبها وصراعها الحضاري

ينسب علماء تاريخ اللغات لساننا العربي إلى أصل قديم يسمونه "اللغة السامية" ، وإليه يُرجِعون مجموعة من اللغات اندثر بعضها وبقي بعضها الآخر ، منها العربية والعبرية .

ومجموعة اللغات السامية تمثل أحد فروع فصيلة أكبر هي " الفصيلة الأفرو أسيوية"، وهذه - مع فصائل أخرى كبرى - تشكل التصنيف العام للغات العالم .

وقد نبتت فكرة تجميع لغات الأرض (التي تعد بالآلاف) في فصائل - تُقَسم بدورها إلى فصائل أصغر فأصغر - مما لاحظه اللغويون من وجوه أشباه عديدة أو محدودة، قوية أو ضعيفة بين اللغات المختلفة، سواء على مستوى الأصوات أو المفردات أو التراكيب أو الدلالة، وبعض وجوه الأشباه شائعة في لغات كثيرة إلى حد أن توفر البعض على دراستها وأطلقوا عليها (السمات اللغوية العالمية) "language universals" ، وهو ما يشير إلى فكرة وحدة أصل اللغات، وإن كان إثبات ذلك فعلاً يكاد يدخل في نطاق المستحيلات .

أما مصطلح (السامية) التي ينسب إليها اللسان العربي فقد أطلقه العالم الألماني " شلوتسر" أواخر القرن الثامن عشر الميلادي(١٧٨١م) وكان يقصد به أن تكون هناك " تسمية مشتركة للعبريين والعرب والأحباش الذين توجد بين لغاتهم صلات القرابة " [١] .

وهي تسمية أخذها من التصنيف التوراتي للبشر[٢] نسبة إلى سام بن نوح "عليه السلام" ، ورغم عدم دقة التسمية علمياً وانطلاقها من التصور العنصري والزيف اليهودي المدسوس في التوراة ، فقد ارتضاها لغويو الغرب وسايرهم عليها لغويونا العرب المحدثون كالعادة ، على

(١) فقه اللغات السامية. كارل بروكلمان. ترجمة د/ رمضان عبد التواب ص ١١ - جامعة الرياض ١٩٧٧م .

(٢) التوراة: سفر التكوين ، إصحاح ١٠ .

الرغم من أن بعض علمائنا القدامى كالخليل بن أحمد وابن حزم قد فطنوا إلى العلاقة بين العربية والكنعانية والعبرانية والسريانية، ولم ينسبوها إلى سام أو غيره [١].

هذا وتتشابه اللغات السامية في بعض الخصائص: كاشتقاق معظم كلماتها من أصل ثلاثي ، ووجود حرفي الحلق(ح ، ع)، وحروف الإطباق(ص، ض) ، والتشابه في تكوين الأسماء من حيث العدد والنوع، والأفعال من حيث الزمن والتجرد والزيادة والصحة والاعتلال، وفي نظام الاشتقاق القائم على السوابق والأواسط واللواحق، وفي عدد من المشتقات كاسمي الفاعل والمفعول والمكان والزمان والآلة... إلخ .

كما تعتمد في الكتابة على الحروف الصوامت دون الحركات .. وفي مقابل ذلك توجد فروق عديدة وسمات خاصة .

وتتميز العربية من بين هذه اللغات بأنها أقربها إلى السامية الأم ، لاحتفاظها أكثر من غيرها بعناصر صوتية ونحوية (كنظام الإعراب وجموع التكسير)، تعد قديمة وترجع إلى اللغة الأم .

هذا وقد عرفنا لغتنا من خلال اللهجات العربية التي تفرعت بدورها إلى لهجات جنوبية بادت كلها ولم يصلنا منها سوى نقوش، وأخرى شمالية لم يبق منها سوى هذا اللسان الذي كتب له الخلود والرقي لنزول القرآن الكريم به [٢].

لقد دخلت العربية الباقية في صراع لغوي مع بنات عمها الساميات وأخواتها العربيات قرونًا قبل الإسلام فبادت جميعها إلا بقايا لا تذكر، باستثناء العبرية التي بُعثت من مَواتها بعد ألفي عام تمهيداً لقيام دولة إسرائيل المصطنعة، كما صارعت لغاتٍ أخرى غير سامية بعد ظهور

(١) فقه اللغات السامية . كارل بروكلمان ص ٦ .

(٢) فقه اللغة العربية وخصائصها د/ إميل بديع يعقوب ١٠٨ – دار العلم للملايين ١٩٨٢م .

الإسلام فقضت عليها وحلت محلها[١].

وتعتبر العربية لسانًا فريداً من بين لغات الأرض التي تعد بالآلاف، وذلك لاصطفاء الله العليم الحكيم (اللسان العربي) ليكون وعاء يحمل وحيه تعالى ورسالته الأخيرة الجامعة إلى الناس أجمعين، وكانت هناك لغات عديدة في الأرض ذات تاريخ طويل في التعبير عن مخرجات الحضارة كاليونانية واللاتينية والفارسية والسنسكرينية والسيريانية والمصرية القديمة وغيرها .

صحيح أن العربية هي إحدى لغات البشر إلا أن سموها وكمالها بحيث تحظى بهذا الاصطفاء الرباني والشرف الفريد لم يكن أمراً طبيعيًا في سائر اللغات .

وقد حَيّرَ الباحثين قديمًا وحديثًا عربًا وغير عرب أمرُ نشأة هذا اللسان العربي وسُمُوِّ خصائصه، فاللغوي العربي الفذ ابن جني(ت ٣٩٢ه) بعد أن ذكر في أول الأمر أن أكثرَ أهلِ النظرِ على أن أصلَ اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف، عاد ليقول: " إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاف والرقة ، ما يملك عليَّ جانب الفكر ... فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقًا من الله سبحانه وأنها وحي "[٢] .

وإذا كان اللغويون المحدثون من العرب وغيرهم يرون أن العربية هي " أقرب أخواتها إلى اللغة السامية الأولى وأكثرها احتفاظًا بخصائص السامية الأم ، ومادامت كذلك فلا يمكن إلا أن تكون أقدمها جميعًا"[٣] .

ولكن الذي حير ابن جني وغيره إلى اليوم هو: كيف تأتَّى لهذه اللغة أن تحافظ على

---

(١) في علم اللغة العام د/ عبد الصبور شاهين ص ١٨٨ – مؤسسة الرسالة ١٩٨٠ م .

(٢) الخصائص ١/ ٤٧ .

(٣) أهمية اللغة في الحياة الإنسانية (في اللغة العربية والوعي القومي ندوة بإشراف مركز دراسات الوحدة العربية) – محمد جابر الفياض – ص ٢٨٧ – بيروت ١٩٨٤م .

خصائصها الموروثة ، وفي الوقت نفسه تزداد صفاء وسعة وتتعاظم طاقاتها التعبيرية ، مع أن العهد في اللغات أن يُبعدَها عن أصلها طولُ عمرها، وأن تتفرع -عبر القرون - إلى لهجات لا يزيدها الزمن إلا تباينًا ، خاصة إذا كان المتكلمون بها لا يتعايشون في مكان واحد كما كان حال العرب في جزيرتهم، وإلا فأين السامية الأولى ، وأين السنسكرينية واللاتينية ؟

وهذا الوضع النادر للعربية بين لغات البشر جعل المستشرق الفرنسي "رينان" يرى - رغم تعصبه الشديد ضد الإسلام وحضارته - أن اللغة العربية بدت فجأة على غاية الكمال ، سلِسةً أيّ سلاسة ، غنيةً أي غِنى ، بحيث لم يدخل عليها منذ أن عُرفت أيُّ تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة .

ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرُّحل .

ولا شك أن الغرابة التي استشعرها هذا المستشرق تنجلي حين نفهم ما يحدث على أرض الواقع في إطار قدر الله وسننه الحاكمة ، فاختيار الجزيرة العربية - مركز الأرض - لتكون موقعًا لبيت الله - أولِ بيت وضع للناس - ، وجمْعُ العرب حول دين إبراهيم "عليه السلام" وربطهم بالبيت الحرام وحجِّه كل عام، وإقامة أسواق الأدب واللغة في مواسم الحج ، وتحبيب الشعر والبيان إليهم ، ليست - مع غيرها من العوامل التي نعلم منها ونجهل- سوى مؤشرات على سنن الله تعالى ، لتصبح هذه اللغة في الوقت الذي قدره الله على هذا المستوى المعجب لينزل بها وحي الله ، وتصبحَ بفضله محفوظة وأهلاً لأن تكون لغة أمة عالمية لا ترتبط بحدود المكان أو الزمان . وقد صارت كذلك بالفعل قرونًا، وسوف تعود إلى وضعها العالمي - إن شاء الله - بعد أن تتعافى أمة الإسلام من أوصابها .

ومعلوم أن اللغة في أصلها ظاهرة إنسانية اجتماعية يمارسها الناس في الظروف الطبيعية – كما يمارسون أي نشاط آخر، كالمشي والأكل دونما تعقيد أو صعوبات، فكل أطفال العالم يستطيعون في سنوات قليلة أن يتقنوا لغة مجتمعهم بشكل تلقائي (أو سَلَقي) دون تعليم أو تعلم مقصود.

وهذه البساطة الظاهرة في اللغة لا تعني أنها في حقيقتها عملية بسيطة ، بل العكس هو الصحيح، فهي عملية معقدة غاية التعقيد، متعددة الجوانب والأنظمة في ذاتها: أصوات وكلمات وتراكيب ودلالات، كما أن لها ارتباطًا وثيقًا بالتكوين العصبي والعقلي والنفسي للإنسان مُرسِلاً(متحدثًا) أو مستقبلاً(مستمعًا)، وكذلك بالأنظمة الطبيعية(الفيزيائية) خارج كيان الإنسان، حيث تنتقل موجات الأصوات عبر الهواء من الفم إلى الأذن، ونحن نحس بشيء يسير من هذا التعقيد "العظيم" حين ندرس لغة أجنبية، أو حتى لغتنا الفصحى التي صارت عند كثير من الناس كاللغة الأجنبية وصاروا إزاءها كالأعاجم .

وليس أدلُّ على عظمة اللغة وعمقِ أغوارها وكثرةِ أسرارها من أن البشر على الرغم من جهودهم المكثفة – منذ فجر الخليقة حتى اليوم – لدراستها وكشف أسرارها لا يزالون يشعرون بأنهم لم يبلغوا الغاية ولم يعرفوا عنها كل شيء، بل إن " بعض الأبحاث ذات الصلة الوثيقة باللغة ما زالت تحبو في دنيا الكشف والمعرفة، كتشريح المخ البشري وتصنيف وظائفه وكشف مخبوئه" [1] .

ولا نزال نسمع كل يوم عن جديد يضاف في كل فرع من فروع الدراسات المتعلقة باللغة، وإذا دل هذا على عظمة نظام اللغة العجيب، فإنه يدل أكثر على عظمة صنعة الخالق في الإنسان

(١) أصل اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية أ.د/ توفيق محمد شاهين ص ٧ – مكتبة وهبة مصر ١٩٨٠م .

الذي وضع مخه ذلك النظام العجيب، ويقدر على استيعابه بيسر خلال سنوات محدودة في صباه ، وصدق الله العظيم حيث قال ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم/ ٢٢) .

إزاء هذا البنيان الرباني العجيب أجهد البشر أنفسهم عبر القرون ، وأوجد ذوو العقل منهم منظومة عظيمة من العلوم المختلفة في مجالاتها ومضمونها ووسائلها وغاياتها ، ولكنها متشابكة متكاملة متعاونة من أجل خدمة اللغة وكشف عجائبها التي لا تنتهي، فهناك علوم تدرس ما يتعلق باللغة في خلايا المخ وشعيرات الأعصاب ، وفي أغوار عالَم النفس البشرية المستور، وعلوم تدرس الصوت المفرد وكيفية إنتاجه وانتقاله واستقباله، وكوكبة ثالثة تدرس أشكال تجمعات الأصوات وتوزيعاتها في شتى اللغات، ورابعة تدرس الوحدات الدالة(الكلمات) من حيث ما تحمله من دلالات على المعاني الأساسية أو الإضافية(وهي علوم القواعد والنحو)، وسادسة تعني بالجانب الجمالي والتأثيري من اللغة ، وسابعة بتاريخ اللغات ، وثامنة بالعيوب وأشكال الإعاقة اللغوية تُشَخِّصُها وتجتهد لوصف علاج لها، وتاسعة تعني بتفرع اللغات إلى لهجات وما يصيبها من رقي أو انحطاط ، وانتشار أو انحسار ، وربط ذلك بظروف المجتمعات ، وعاشرة وحادية عشرة ...إلخ .

ومن أحدثها علوم اللغويات الحاسوبية التي تسعى إلى إنتاج الكلام آليًا والترجمة الآلية بين اللغات، ولا يزال الميدان خصبًا والبحوث فيه تأتي كل يوم بجديد ، وصدق الله العظيم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت/٥٣)، وكان للغويينا في الماضي إسهامات فذة في خدمة اللسان العربي، ولكن دفة الدراسات اللغوية اليوم في أيدي غيرنا، حتى في دراسة لغتنا، ونحن وراءهم لاهثون ، ولا تجد لغتنا من غالبيتنا سوى فتات الوقت والجهد

ومما يدل على أن اللفظ والمعنى في اللغة العربية كليهما يوزن بميزان الذهب: أن نجد مثلا أن للفعل (رأى) ثلاثة مصادر: "رؤيةً " لفعل العين في اليقظة، و"رؤيا" لما تراه في النوم، و"رأيا" حين ترى بعقلك، وقد ينزل فعل العقل منزلة فعل العين لوضوحه على طريق المجاز فنقول: لي في المشكلة رؤية خاصة.

وفي جمع (كاتب) إن قلت: كاتبون عنيت من شأنهم أن يكتبوا أو وقع منهم فعل الكتابة ولو مرة ، وإن قلت : "كتَّاب" عنيت مؤلفي الكتب ومحترفي الكتابة الراقية ، أما إن قلت: "كتبة" فإنك تعني محترفي النسخ والكتابة مما لا فكر فيه ولا إبداع .

أليس ذلك تأنقًا لغويًا ومستوى من الدقة والغنى الرفيع؟ ، وهناك ناحية أخرى أدق:

نقول: " كل إناء ينضح بما فيه" أي: يرشح في ضعف وخفاء، ألا تحس ذلك في صوت الحاء؟ أما "ينضخ" بالخاء المعجمة فيقال للماء يفور بقوة، قال تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ (الرحمن/ ٦٦) ، ألا تكاد تسمع من الخاء صوت الفوران الأجش؟!، وصوت (الغين) المفخم يشعرك بالغموض، وهو ما تحسه مسيطراً على كلمات كثيرة تبدأ بهذا الصوت: (غاب، غار، غاص، غاض، غام، غرب، غض، غمض، غم، غش، غص، غفا، غطى، غرق، غمر، غفر، غيَّ...) .

وقد تبدأ الكلمة بصوتين يمثلان حركتين، أولهما:(ن) يمثل حركة خفية داخلية ، يعقبه صوت ثان(ف) يمثل حركة نفخ مسموع وإفراج عن قدر من الهواء وطرده نحو الخارج ، فإذا تكرر نطق الحرفين محركين بالفتح عدة مرات نلاحظ هذا التحول من داخل إلى خارج ، ومن خفاء إلى بروز ووضوح، فإذا تلاهما أي حرف(صوت) آخر نحصل على كلمات عديدة تشترك كلها في الدلالة على معاني تدور حول البروز والخروج لكن بخفة وخفوت ، تأمل:(نَفَث، نَفَخ،

نَفَج، نَفَد، نَفَذ، نَفَس، نَفَش، نَفَض، نَفَط، نَفَق ...) .

أما إذا وضع في الموقع الثاني صوت(ب) مكان (ف)، والباء صوت انفجاري(شديد) فسنجد أن درجة وضوح حركة الخروج، وقوة البروز والظهور قد عظمت في الكلمات المبدوءة بصوتي النون والباء، تأمل هذه السلسلة ثم قارنها بالسلسلة السابقة المبدوءة بالنون والفاء (نَبَأ، نَبَت، نَبَث، نَبَذ، نَبَز، نَبَر، نَبَس، نَبَش، نَبَض، نَبَط، نَبَع، نَبَغ، نَبَل، نَبَه، نَبَا ..)[1]

بل عد علماء اللغة من لطيف صنع العرب وحكمتهم اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبًا، وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقًا للحروف (الأصوات) على سمت المعنى المقصود، ويمثل ابن جني(ت٣٩٢هـ) لذلك بحروف(بحث)، فـ(الباء) لغلظها تشبه بصورتها خفقة الكف على الأرض ، و(الحاء) لصحَلها – صوت البُحَّة فيها – تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب إذا غارت في الأرض، و(الثاء) للنفث والبث للتراب[2] .

من هنا يتبين إلى أي درجة بلغت دقة هذا اللسان وحساسيته، إن الأمر ليس مقصوراً على أمثلة محدودة ولكنه ظاهرة بارزة لفتت أنظار اللغويين بقوة منذ بدأوا تدوين نصوص هذا اللسان ومعايشتها ، فأعجبوا بها وفتشوا عن معالمها فتكشف لهم عبر العصور خصائص فذة ومبهرة، وغلا في أمرها بعضهم من فرط حبه لها فحاول أن يستشف معنى عامًا لكلمات اشتركت في حرف أو أكثر، كما في (مات، ماج، ماد، مار، ماس، ماط، مال، مان -كذب-) للميل ، و(قدّ، قطع، قطف، قطم ...) للقطع، وما هذه العبقرية في نظام الأصوات التي تستحق أن توزن بميزان الذهب

(١) أصل اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية أ.د/ توفيق محمد شاهين ص ٢٦ -٣٣ .

(٢) الخصائص ٢/ ١٦٢-١٦٣ .

سوى شعرة من خيط واحد في ثوب العربية البديع في كل خيوطه ونسيجه ونقشه ورقشه، فلا عجب إذن أن هام بها الآلاف والملايين حبًا ، وقدموا حياتهم الغالية عن طيب خاطر يخطبون ودها .. ألم يقولوا: " ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر" ؟ لكن اللغة العربية اليوم واحسرتاه تنادي ولْهَى كما تصورها أحد محبيها (شاعر النيل: حافظ إبراهيم -رحمه الله-) :

ولدتُ ولما لم أجد لعرائسي رجالاً أكْفاء وأدت بناتي
فياويحكم أبلَى وتبلَى محاسني ومنكم - وإن عز الدواء - أُساتي

ولكن ما يجعلنا نطمئن عليها أن اللغة العربية دائما وأبدا دوحة معطاء، وأن عجائبها ودقتها لا نهاية لهما، ولا غرابة في ذلك فهي لغة الكتاب العزيز . وإذا وقفنا على بعض عجائبها ودقتها نرى أن جذراً واحداً من جذورها اللغوية كـ(ص . ن .ع) مثلا قد تولَّد أو اُشتُق منه : صنَع، وصنَّع، وصانع، وتصانع، واصطنع، واستصنع ، ومن كل واحد من هذه الأفعال الستة يمكن أن تتولد عائلات من :

الصفات: صانِع، مصنوع، صَناع، مصطنع، صناعي، اصطناعي .

ومن الأسماء: صُنع، صَنِعٌ، صناعة، صنعة، تصنيع، مصانعة، اصطناع، استصناع، مصنع، مصانع، مصنعية، صنيعة، صنائع .

ومن الأفعال: صُنِعَ، يصنع، اصنع .

كل هذه المشتقات وغيرها من ذرية جذر عربي واحد هو(ص. ن. ع)، ولا يزال في رحم هذا الجذر المعطاء مشتقات أخرى تنتظر مُجريات التطور الحضاري لتؤدي دوراً محدداً، مثل الفعل "انْصَنَعَ" وهو لم يستخدم بالفعل حتى الآن، ولو تصورنا أن التطور التقني تمكن من صنع آلات تقوم وحدها دون تدخل بشري بصناعة منتجات معينة من الألف إلى الياء عندها يمكن أن نقول: انصنع كذا والأشياء المنصنعة ...إلخ .

كل هذا الخير بعضُ إنتاج جذر ثلاثي واحد، وكثير من الجذور الثلاثية العربية التي تزيد على سبعة آلاف كلها على هذا المستوى أو فوقه من الخصب والعطاء، أضف إلى ذلك الجذور الرباعية والخماسية.

تَجَوّل ما شئت في أي من معاجم العربية مثل: لسان العرب أو القاموس المحيط أو حتى المعجم الوسيط وزر عدداً من " أحياء أو مواطن" المفردات تدخل إليها من باب "الأصل" لتجد المضارب والبيوت موزعة هناك طبقًا لنظام معين تعرفه من مقدمة المعجم، وسوف تقف على مدى الخصب والغنى والسعة والمرونة التي يتميز بها هذا اللسان ، وهي خصائص وضعت موضع التجربة والامتحان مرات ومرات وأثبتت في كل مرة كفاءتها العالية، وأعظمها تجربة هي التعبير عن كتاب الله "عز وجل" بآفاقه البيانية السامية ، ومضامينه التشريعية الخصبة، ومن بعدها جاءت التجربة الأخرى الأرحب مجالاً ، والأدنى إلى تجربتنا الحاضرة، تلك التجربة الفذة حين ترجم المسلمون الكثير من علوم الحضارات الأخرى مما لم يكن للعرب ولا للمسلمين عهد به من قبل، ومع ذلك لم يُدَرِسُّوا أو يؤلفوا بلغة أجنبية ، بل تُرجمت كل الكتب من شتى الحضارات وفي مختلف العلوم إلى اللسان العربي فوسعها، ووسع كل التطورات الحضارية والإنجازات العلمية الرائعة التي قام بها المسلمون ، ولذا سميت تلك الحضارة "الحضارة العربية"، رغم أن جوهرها ومحتواها إسلامي لأنها كتبت باللغة العربية .

ولم نسمع ممن شادوا هذه الحضارة العريقة أي شكوى من عجز اللسان العربي عن استيعاب كل جديد والتعبير عنه بكفاءة، بل صارت العربية لغة التعليم والثقافة حتى عند غير المسلمين .

أما في العصور الأخيرة عصور الوهن والتبعية التي نمر بها اليوم ، صرنا نسمع كل من هب

ودب ينهش في عرض العربية ويتهمها بكل ألوان النقص والعجز والضعف والجمود، ولو صدقوا لردوا تلك السهام إلى أنفسهم ، إذ ليس العيب في المَغْزِل بل في الغزَّال ، وها هي العربية تنادي أبناءها الذين تخلوا عنها تقول:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف ... آلة وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عزَّ أقوام بعز لغات
أتو أهلهم بالمعجزات تفننًا ... فياليتكم تأتون بالكلمات [1]

(حافظ إبراهيم)

(١) اللسان العربي الهوية – الأزمة – المخرج – عبد الوارث مبروك سعيد ص ١٧٠ وما قبلها بتصرف .

المبحث الثاني

اللغة العربية ومفهوم الوطنية

يفصِلُ البعضُ بين اللغةِ والوطنِ وكأن اللغة بمعزل عن الوطنية، ويرون أن الوطنية وعاءُ اللغة ونتاجها، بينما الأمر أنهما وجهان لعملة واحدة، ومعنى واحد متداخل ينمو بعضه من بعض. فاللغة هي الوعاءُ والمنتجُ والأداةُ المعرفيةُ والفكريةُ التي يمكن للوطنِ أن يمررَ من خلالها هويتِه في الإبداعِ والإنجازِ وبالتالي يبني له حضارتَه الخاصة.

إنَّ الانتماءَ للوطنِ مقرونٌ باللغة، لأن اللغة هي الوطن الروحي الذي نحمله معنا أينما يممّنا وجهنا، فالإنسانُ في لغتِه يحملُ رسالةَ وحضارةَ وأدواتِ وطنِهِ الثقافيةَ والفكريةَ، وهو بهذا يقترنُ ولائيـًا بوطنه كما قال فوسلر : إن اللغةَ القوميةَ وطنٌ روحيٌ يَؤوي من حُرِمَ وطنَه على الأرض .

وبما أن مناهجنَا الدراسيةَ الحديثةَ تسعى إلى ترسيخِ مفهومِ الوطنيةِ في نفوسِ أبنائِها، فاللغةُ هي الطريقُ الأولُ والآخِرُ لزرعِ بذرةِ هذا المفهومِ، وهي الحصنُ الذي تستطيعُ به الدولةُ أن تحفظَ به قيمَ الولاءِ والانتماءِ، وبها أيضا تستطيعُ مواجهةَ التياراتِ الدخيلةِ التي يمكنُ لها أن تنزعَ مفهومَ الوطنيةِ بدلاً من العزلة والانغلاق مع الذات.

وقد سرّتني مؤخراً السياسةُ التي تقدمها وزارةُ التربيةِ والتعليمِ في غرس قيمةِ اللغةِ العربيةِ عبرَ مناهجِها اللسانيةِ والعلميةِ، والنهضةُ في استخدام اللغةِ العربيةِ كلغةٍ رسميةٍ في التحدثِ بدلًا من العاميةِ المنتشرةِ بين أبنائِنا نطقـًا وكتابةً، وهذه اللفتةُ الطيبةُ تنم عن أن الدولةَ قد تنبَّأتْ إلى الخطر الذي قد سيحدث للوطن حالما ينسى أبناؤه لغتَهم إلى لغة أخرى لا تمثل ثقافتَهم ولا فكرَهم ولا دينَهم ولا وطنيتَهم، وهي بهذا تحمي معنى الوطنيةِ بنفوسهم في حال أن كتَبَ لهم القدرُ أن يعملوا خارجَ الوطن، وقد تنبه إلى هذه الإشكالية – في العلاقة بين اللغة والوطنية – المفكر الدكتور/ حامد عمّار حين قال في أطروحة عن العلاقة بين البيزنس والمُواطنة :

" وبديهي أن انخراط الفرد في اللغة الأجنبية يقوده إلى التوجه بفكره إلى السياقات الأجنبية وأنماط التفكير التي تحتضنها اللغة الأجنبية، فاللغة هي رهينة الفكر، وحين يفكر المرء باللغة بالأجنبية يكون له منحى من التوجه نحو مجازات لغوية وقضايا مجتمعية ورؤى أجنبيةٍ، وتقل فرصةُ اشتباكه مع واقعه ومجتمعه العربي ، فضلاً عن أن الدارسَ باللغةِ الأجنبيةِ والمنخرطَ فيها تنشأ لديه سماتُ استعلاءٍ وتفوقٍ على غيره ممن درسوا بالعربية، ومثل هذا الدارس المتعالي حتى وإن عمل في بلادهِ فلا طائلَ من ورائه، لأنه قد انغرست في ذهنهِ وضميرِه فكرةُ أن اللغةَ الأجنبيةَ قد أغنتُه عن لغتهِ الأم -أعني العربية-، ومثل هذا يُعد يتيماً في وطنه، لأنه كما قيل: اللغةُ هي الأمُّ، والوطنُ هو الابنُ، وكلُّ ابنٍ بلا أمٍ يتيمٌ"[1] .

(١) موقع العربية مقال منى العتيبي الذي نشر في ١٨ ديسمبر ٢٠١٤

المبحث الثالث

أولاً: الغيرة اللغوية :

يدور معنى الغَيرةِ في معاجمِ اللغةِ حول غَيرةِ الرجلِ على المرأة وغَيْرتِها هي عليه، أي: ثارت نفسُه لإبدائِهَا زينتَهَا لغيرِه أو لانصرافها عنه إلى غيره[١] .

وقد اتسع هذا المعنى حتى صارت الغيرةُ تعني: صيانةَ كلِّ ما يلزمُ صيانتَه سواءٌ في سياسةِ الرجل نفسَه، أو سياسةِ منزلِه وأهلِه، أو سياسةِ مدينتِه وضيعتِه، ولذلك قيل: ليست الغَيرةُ ذَبَّ الرجلِ عن امرأتِه ، ولكن ذَبُّه عن كل ما يختصُ به[٢] .

وفي الصحيح: إن الله تعالى يغارُ، وإن المؤمن يغارُ ، وغَيرةُ اللهِ أن يأتيَ المؤمنُ ما حرمَ اللهُ عليه[٣]، والمسلمُ الحقُّ يغارُ على حرمات الله إذا انتُهكت ، ويغار على عرضِه وكرامتِه وسمعتِه وقبيلتِه وعائلتِه ووطنِه وأمتِه ولغتِه ، ولا يرضى لنفسه النذالةَ، فيغضُّ الطرْفَ ويصمُّ الأذنَ عما يرى أو يسمعُ من اعتداءٍ أو إهانةٍ تلحق بأي منها، لكننا للأسف الشديد لا نكاد نحس بغيرة أبناء الإسلام – حتى العرب منهم – على لغتهم، بل قد يغار الواحدُ منهم على ديناره أو درهمه ولا يغار على لغته، فصرنا نسمعُ ونرى قواعدَ اللغة تُنتَهكُ صباحَ مساءٍ ويُستخف بها في وسائل الإعلام، وتُطرد بلا رحمة من مملكتها الخاصة – ساحات العلم والتعليم – فلا يُحرك ذلك حَمِيَّةَ أحدٍ أو غيرتَه، بل نجد واخجلاه ! من أبناء العرب والمسلمين من يساهمُ في هذا بجهود غير مشكورة ويتباهى به، وكأنه ممن لا يتورعون أن يتاجروا بمقومات حضارتهم ! .

فما الذي جرَّنا إلى هذا المنحدرِ وتلك المهانةِ الحضاريةِ المؤسفةِ بعد أن كنا زمنَ الجاهلية

---

(١) المعجم الوسيط ص ٦٦٨ .

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص ٢٣٨ .

(٣) صحيح الجامع ٩٥٠٥ .

أمةً ذاتَ غلوٍ في حبِّ لغتِها، وبعد الإسلامِ تكاد تقدسُها؟ !

لعل من أسباب ذلك:

١ – تلك الفرديةُ القاتلةُ التي تملكتْنَا فجعلتْنَا لا نبالي بما يَهُم الأمةَ، مادمنا نستطيعُ – كما نظنُ – أن نحققَ مصالحَنَا بأيةِ وسيلةٍ ولو بلغةٍ أجنبيةٍ .

٢ – ذلك البعدُ عن الإسلامِ وشريعتِهِ واستيرادُ القوانينِ والنظمِ الأجنبية، مما جعلَنا لا نحسُ بالحاجةِ إلى القرآنِ ولغتهِ ولا نشعر بأهميتها لحياتنا .

٣ – الانبهارُ الشديدُ بالغرب وعلمائه إلى حد نسيان عداوتهم الثابتة والدائمة لديننا وأمتنا، فاتخذناهم أصدقاء وأولياء وبطانة رغم تحذير الله لنا في القرآن الكريم ، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ (الممتحنة/ ١) ، فصرنا نصدِّقُ كلَّ ما يلقونَه إلينا حتى نجحوا في فرضِ العزلةِ بيننا وبين لغتِنا ، فصارت غريبةً عنا وصرنا غرباءَ عنها فاستبدلناها بلغاتِهم كما أرادوا .

٤ – استشراءُ التعليمِ الأجنبي في جسمِ المجتمعِ العربي، أو ما يسمى خِداعًا أو انخدَاعًا بـ "مدارسِ اللغات"، والطغيانُ الواضحُ للمدِّ الأجنبي اللغوي في وسائلِ الإعلامِ المختلفةِ، مما روضَ العقولَ والقلوبَ وطوَّعها وطبَعَها على العيشِ بدون العربيةِ الفصحى .

ولا مخرجَ لنا من هذه التبعيةِ المهينةِ إلا بالتخلصِ من العللِ والأسبابِ السابقةِ، وتربيةِ الأجيالِ على الاعتزازِ بالأمةِ والجماعةِ، وعلى الارتباطِ بالقرآنِ ولغتهِ، وعلى فطمِ أنفسِنا عن التبعيةِ الذليلةِ لأعداءِ الإسلامِ والعربيةِ ، خاصةً أولئك الذين ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ (المائدة/ ٦٢)، والذين ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة/٦٤)، فهل يسعُ مسلمًا أن يحبَّ مالا يحبُه اللهُ؟

كما أنه لا مخرجَ لنا أيضـًا من هذا التبلدِ وعدمِ الغيرةِ إلا بغرسِ مفهومِ أن خدمةَ اللغةِ العربيةِ تعني خدمةَ القرآنِ الكريم والكشفِ عن كنوزِه وأسرارِه، فقد اختارها الحقُّ ﷻ من بين سائرِ اللغاتِ لتكون وعاءً يحوي مرادَ كلامه تعالى لفظـًا ومعنى .

لذا نرى أن السلفَ الصالحَ ما قصروا في خدمتِها حيث جاهدوا بأنفسِهم وأموالِهم ووقتِهم لخدمة لغةِ القرآنِ الكريم، عكفوا على تعلمِها لما لها من مكانةٍ مقدسةٍ في نفوسهم، غارُوا عليها، وغاروا على بيانِها المعجزِ أن تدنسَه عجمةُ الأعاجمِ ولوثةُ الإفرنجِ، فقضَوا سِنِيَّ حياتِهم في تقعيدها وإشادةِ أركانِها ورسمِ أوضاعِها، ولا نعجبُ إذا علمنا أن منهم من أوجب تعلمَ العربية وإتقانِها ، قال عمرُ بن الخطاب "رضي الله عنه" : (تعلموا العربية فإنها من دينكم ، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم) فسوَّى بينها وبين تعلم الفرائضِ، وهو القائلُ أيضـًا "رضي الله عنه": (تعلموا العربية فإنها تَزيدُ في المروءة)، وقال شعبةُ "رحمه الله": (تعلموا العربية فإنها تَزيدُ في العقلِ)، وكره الشافعيُ لمن يعرف العربيةَ أن يتكلم بغيرِها، وقال ابن تيمية "رحمه الله": (إن اللغةَ العربيةَ من الدين، ومعرفتُها فرضٌ واجبٌ ، لأن فهمَ الكتابِ والسنةِ فرضٌ ، ولا يُفهم إلا بالعربيةِ، وما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجبٌ) ، وقال ابن فارسُ: (إن علمَ اللغةِ كالواجبِ على أهل العلمِ لئلا يحيدوا في تأليفِهم أو فُتْياهم)[1] .

وفي ما خلفه لنا علماءُ العربيةِ دليلٌ على فضلها ، فما خلفه "ابن جني" الذي كان متمكنـًا من اليونانية لأنه روميٌّ ، وما خلفه أبو علي الفارسي الذي كان متمكنـًا من الفارسية لكونه فارسيـًا لخيرُ دليل على اعتزازهما بالعربية، وكذلك كان شأنُ الكثيرِ من سلفِ الأمة ، حتى أُثر عن أبي الريحان البيروني قولُه : " لأن أُشْتَمَ بالعربيةِ خيرٌ من أن أُمدحَ بالفارسية " .

(١) الصاحبي- أحمد بن فارس ص/ ٥٥- تح/ السيد احمد صقر .

ثانياً: تعلم العربية فرض عين أم فرض كفاية ؟

قضت حكمة الشارع الحكيم أن يجعل ركائز الحياة وأسس صلاح الفرد والمجتمع فرضًا عينيًا على كل مؤمن، لا يسعه أن يتخلى عنها، وإن فعل أدى بفعله إلى الفساد﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾ (مريم/ ٥٩)، وقس على الصلاة كل الفروض العينية المعروفة في الشريعة ، إضاعتها تؤدي إلى اتباع الشهوات والسقوط الغي .

من هذا المنطلق الشرعي يكون السؤال: هل تعلم العربية فرض على كل مسلم؟ ، وإذا كان الجواب بالإيجاب فهل هو فرض عين أم فرض كفاية؟

إن مقتضى الإيمان بالله ربًا له الخلق والأمر والحكم، وإلهًا تجب عبادته على علم، أن على العبد المؤمن بالله أن يفهم ما أنزله الله إليه – قرآنًا وسنة – لأن فيه وحده منهج العمل والتعبد لله، ولما كان كتاب الله لا ينفك عن العربية ولا يكون قرآنًا إلا في نصه العربي، أصبح تعلم لغة القرآن واجبًا على كل مسلم، من باب مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وقد اختلف العلماء اختلافًا كبيراً في تعيين العلم الذي هو فرض عين على كل مكلف بناء على الحديث النبوي: " طلب العلم فريضة على كل مسلم "، ومما انتهوا إليه أنه هو " العلم بما كلف الله تعالى به عباده من الأحكام الاعتقادية والعملية" كذا في الإحياء للغزالي، وقالوا أيضًا: "طلب العلم فريضة بقدر ما يحتاج إليه لأمر لابد منه من أحكام الوضوء والصلاة وسائر الشرائع ولأمور معاشه، وما وراء ذلك ليس بفرض" (١)

أما علوم اللسان العربي "وأركانه الأربعة: اللغة والنحو والبيان والأدب فمعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونَقَلَتُهَا

(١) أبجد العلوم – صديق بن حسن القنوجي – ص ٣٥٢ – ٣٥٣ – دار الكتب العلمية دمشق ١٩٨٧م .

من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو" [1] .

وإذا كان تعلم هذه العلوم اللسانية ضرورياً على مستوى التخصص لعلماء الشريعة والمجتهدين فإن تعلم الحد الأدنى الذي يمكن المسلم من قراءة القرآن والسنة قراءة سليمة من حيث نظام التركيب اللغوي العربي يكون واجباً على سائر المسلمين، وإلا وقعوا في الخطأ وتعذر عليهم فهم خطاب الله تعالى لهم .

إن علماء التجويد والقراءات متفقون على أن تعلم التجويد واجب على كل مسلم يقرأ القرآن لقوله تعالى ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل/ ٤) ، وفي هذا الحكم قال الإمام ابن الجزري في منظومته:

والأخذ بالقرآن حتم لازم ... من لم يجود القرآن آثم
لأنه بها الإله أنزلا ... وهكذا منه إلينا وصلا

وعليه: فعلينا أن نتدبر حقيقة وظيفة كل من علم التجويد، وعلم اللسان العربي بالنسبة لتلاوة القرآن، ولنزن قيمة كل من التلاوة السليمة بدون فهم للمعنى مقارنة بالتلاوة المصحوبة بالفهم، الميسِّرة للتدبر الذي جعله الله غاية إنزال القرآن ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (ص/ ٢٩)، لو فعلنا ذلك لاتضح لنا بجلاء أن علم اللسان العربي أرجح كفة، ووظيفته أشد خطراً.

(١) السابق ص ٢٣٢ .

ثالثاً: دعوى صعوبة العربية وكيفية التغلب عليها.

كانت العربيةُ ومازالت هدفًا ثمينًا لسهامِ أعداءِ الإسلامِ والمسلمين، فقد تآمروا عليها بخبثٍ لتغييبِهَا من حياة المسلمين عامة، وكان العربُ - أهلُ اللغة وحماتُها- موضعَ تركيزٍ خاصٍ في هذه الحرب، ونجح هؤلاءِ الأعداءُ -بسبب غفلتِنا وتقصيرِنَا- في تهوينِ أمرِ اللسانِ العربي في نظرنا، وإيهامِنا أنه صعبٌ وغيرُ صالحٍ للحياةِ المعاصِرة، وزينوا لنا بدائلَ من لغاتهم الأجنبيةِ أو من العامياتِ واللهجاتِ ليقطعونا عن سرِّ وجودِنا ومنبعِ وحدتِنا وقوتِنا(القرآنِ، والسنةِ، وتراثِ الإسلام)، وتولتْ أنظمةُ التعليمِ العلمانيةِ تثبيتَ تلك الأفكارِ فأقامت بين العربيِّ ولغتِهِ الفصحى حواجزَ وعقباتٍ ضخامٍ تمنعه من الاقترابِ منها والتعرف عليها والتمكنِ من أنظمتها والإحساس بعظمتها وجمالها، فرضي أن يعيش حياتَه لا يتقنُ إلا العاميةَ، وقد يتقنُ معها لغةً أجنبيةً أو أكثرَ .

أما الفصحى - لغتُه الأمُّ، ولغةُ دينِهِ وحضارتِه - فمتروكٌ أمرُها للظروفِ، ولا يقلقه أو يخجلُه ألا يستقيمَ بها لسانُه أو قلمُه، بل ألا يُحسِنَ قراءةَ كتابِ الله، دعكَ من تذوقِهِ وإدراكِ إعجازِه، وإنْ دعاهُ أحدٌ إلى تعلمِ لغتِهِ ونفضِ هذا العارِ عن نفسهِ تخوَّفَ وتهيَّبَ واعتقدَ أنَّ الأمرَ ليس في وسعِهِ، خاصة إن جاوز سن الشباب. فما مدى صحة هذا الظن والتخوف؟

والحقيقة: أن هذه المشكلة النفسية ليست سوى تراكم لمفتريات الغزو الفكري الخبيث طيلة نحو قرن من الزمان وعبر وسائل عديدة، وتجاوز هذه العقبة والتخلص من تلك العقدة يحتاج إلى نظرة صادقة إلى قضية اللسان العربي ومكانته، وإلى عزمةٍ قويةٍ تعيد الأمر إلى نصابه وتضع القدم على أول الطريق الصحيح .

أما صعوبة العربية فهذه خرافة من دس الأعداء ، واللغويون من أبناء الأمم التي تحارب العربية يرفضون فكرة أن لغة أصعب أو أسهل من لغة أخرى، فهاهم أطفال كل الشعوب يتعلمون لغاتهم الأم بالسرعة ذاتها ودون شكوى، بل منهم من يتلقى عن أسرته لغتين معًا ويتقنهما، ويسمى

"ثنائي اللغة"، وهاهم البالغون يتعلمون ويتقنون مختلف اللغات الأجنبية في معاهد الدرس، وما يكون من شكوى لدى بعضهم أو صعوبة فمردها إلى الظروف المحيطة وطرق التدريس وليس إلى اللغة ذاتها، أما العربية خاصة فقد اتقنتها الشعوب المختلفة حين اعتنقت الإسلام ونافسوا العرب في حبها وإتقانها، بل تفوقوا عليهم أحيانا، وسيبويه صاحب أول وأعظم كتاب في قواعد العربية ليس سوى مثال واحد من عشرات ومئات برزوا في العربية وعلومها ، وعرفوا بالموالي .

كذلك فإن اللغة ليست ركاماً من الفوضى ، وإنما هي نظام محكم له منطقه على كل المستويات، وإلا لما أمكن للناس أن يتفاهموا بها .

ومن المبشرات بسهولة اجتياز هذه العقبة أننا نعرف الكثير من قواعد العربية وأنظمتها، سواء عن طريق ما درسناه في مراحل التعليم أو ما ترسب في ذاكرتنا من خلال تعرضنا الطويل لنصوصها، كل ذلك مخزون يمكن بالممارسة أن ينشط ويستعاد إلى منطقة الوعي، ويحول من حالة الكمون والسلبية إلى الحركة والإيجابية، أضف إلى ذلك أن للعامية التي نتقنها ونمارسها صباح مساء –قواعد في الأصوات والمفردات والنحو وحتى البلاغة تلتقي في مساحة كبيرة مع قواعد الفصحى في تلك المستويات، ولا عجب فهما مستويان من أصل واحد. فإذا أردنا تعلم الفصحى أو ممارستها استمددنا الكثير من تلك الذخيرة اللغوية التي نمتلكها ونحن لا ندري.

إن كل ما نحتاجُه لاجتيازِ هذه العقبة هو وقفةٌ صادقةٌ مع النفس، وعَزمَةٌ قويةٌ على التغيير، وكسرُ حاجزِ الخوف، واستشارةٌ لأهل الذكر عن كيفيةِ البدءِ والتحركِ، وأنسبِ الكتبِ التي تُوصِّلُنا إلى الغايةِ المرجوةِ، والله تعالى لا يضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً ، فهل آن الأوانُ أن نتخذَ هذا القرارَ الحكيمَ ؟ ! [1].

(١) اللسان العربي الهوية – الأزمة – المخرج – عبد الوارث مبروك سعيد ص٢٠٥ وما قبلها بتصرف .

الخاتمــة

أولاً: من الحقائقِ المقرَرَةِ أن اللغةَ العربيةَ هي وعاءُ الأمةِ في الفكرِ، ومستودعُها في القيمِ الثقافية والاجتماعية، لذلك فإن توهينَ لغتِنا وإضعافِها ونبذِها، وإحلالِ أخرى مكانَها، سيؤدي حتماً إلى بلبلةٍ في فكر أبنائِها وقيَمِهم العريقةِ، وفي معاني الهُويَّةِ والانتماءِ.

ثانياً: إن حمايةَ اللغةِ العربيةِ من هجماتِ العولمة هي واجب قومي وديني في آن واحد، فاللغة العربية هي السياج المتين الذي يحميها من آثار العولمة، ومناهضة العولمة تستدعي توعيةَ الجماهيرِ العربيةِ وتعريفهم بأهدافها الخبيثة وجوانبها السلبية، ومن واجبِ الأمةِ العربية حمايةُ لغتِها وتراثِها وبيانِ الجوانبِ المضيئة في حضارةِ أمتِنا وتاريخِنا.

ثالثاً: استمدت اللغةُ العربيةُ قدسيتَها ومكانتَها من قدسيةِ ومكانةِ القرآن الكريم ، الأمرُ الذي يحتم على علماء اللغة، بل على كل من ينتمي إليها أن يكونوا أمناء في الحفاظ عليها ، وأن يقفوا حائط صد ضد كل هجمة شعواء من تلك الدعاوي الكاذبة والتيارات الجارفة التي تريد أن تُحِدَّ من شأنها ، أو تُقلِلَ من قدرتها ، لهذا كله توافرَ على دراسةِ اللغةِ متخصصون في كلِّ الاتجاهات .

رابعاً: إذا تخلى امرؤ عن لغته واصطنع لغةً غيرَها، فإن تفكيرَه يتحول شيئًا فشيئًا إلى مخزون تلك اللغة ودخائرها، ويرتبط تدريجيًّا بعادات أهلها وقيمها، ومع مرور الوقت يتحول انتماؤه إلى ثقافتهم، وقد يعجز-فيما بعد- عن التعبير عن شعوره وعواطفه بلغته التي تلقَّاها بفطرتِه وغريزتِه من أمه، ويستخدمُ تعابيرَ اللغةِ التي جرفت ثقافتَه، وغيبتْ معالمَه.

خامساً وأخيراً: إن من أكبرِ مصائبِ الأمةِ أن يكونَ تعليمُها بغيرِ لغتِها ، وتفكيرُها بغيرِ أدواتِها، وقياسُ حاضرِها يكونُ بمعاييرَ وضوابطَ حضاريةً غريبةً عنها ، والحالة هذه من التخاذلِ والتكاسلِ والتبعيّة، واجهت العربيةَ مجموعةٌ من التحدياتِ والمصاعبِ وقفنا منها موقفَ المتفرج ، إن لم نكن شاركنا فيها من طرفٍ خفي . وقد آن الأوانُ أن نثبت للعالم أن هذه اللغة

غنية باقية ثرية بألفاظها ومعانيها ومفرداتها وأساليبها .

وإذا كان شاعرُ النيل –رحمه الله– يرى أن كثيراً من الأممِ قد عزَّت بعزِّ لغاتِهَا فيقولُ:

أرى لرجالِ الغربِ عِزاً ومنعةً وكمْ عزَّ أقوامٌ بِعزِّ لغاتِ

فإن الإسلامَ يعلمُنا أنَّ الأمورَ تبدأ أولاً من داخلِ الإنسانِ، قال تعالى " ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(الرعد/ ١١) ، وأن مصدرَ العزةِ الحقيقيةِ لهذه الأمةِ المسلمةِ إنما هو إيمانُها بالله تعالى مالكِ العزةِ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون/ ٨) ، أما الآخرون كالذين أشار إليهم حافظُ إبراهيمُ فقد يكون لديهم العزةُ بالإثم، أو عزةُ الباطلِ والطغيانِ.

من هنا بدأت الكارثةُ عندنا بفقدِ الارتباطِ بالمصدرِ الحقيقي للعزة، ومن بعدها بدأنا الانحدارَ، فقدنا الاعتزازَ بلغتِنا والغضبَ لما يَمَسُّ حرمتَهَا، وحين فعلنا ذلك هُنَّا على الآخرين وهانتْ لُغتُنَا، لأن كرامتَها وعزتَها من كرامتِنا وعزتِنا.

هذا والله من وراء القصد . . وهو حسبي ونعم الوكيل . .

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلِّم تسليماً كثيراً . .

،،، والحمد لله رب العالمين ،،،

فهرس المراجـع

القرآن الكريم.

- أبجد العلوم - صديق بن حسن القنوجي - دار الكتب العلمية دمشق ١٩٨٧م .

- أهمية اللغة في الحياة الإنسانية (في اللغة العربية والوعي القومي ندوة بإشراف مركز دراسات الوحدة العربية) - محمد جابر الفياض - بيروت ١٩٨٤م .

- الخصائص - أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي(ت ٣٩٢ هـ) -الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الرابعة .

- الذريعة إلى مكارم الشريعة- للراغب الأصفهاني- د. ط .

- الصاحبي - أحمد بن فارس - تحقيق/ السيد أحمد صقر .

- فقه اللغة العربية وخصائصها د/ إميل بديع يعقوب - دار العلم للملايين ١٩٨٢م.

- فقه اللغات السامية - كارل بروكلمان - ترجمة د/ رمضان عبد التواب - جامعة الرياض ١٩٧٧م.

- في علم اللغة العام د/ عبد الصبور شاهين - مؤسسة الرسالة ١٩٨٠ م .

- اللسان العربي (الهوية - الأزمة - المخرج) - عبد الوارث مبروك سعيد- د. ط .

- اللغة العربية : الهوية والانتماء د/ معمر فيصل خولي - مقال نشر في مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية .

- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - الطبعة الرابعة ١٤٢٥ه - ٢٠٠٤م - مكتبة الشروق الدولية .

- موقع العربية (مقال منى العتيبي الذي نشر في ١٨ ديسمبر ٢٠١٤).

فهرس الموضوعات

المقدمـــة ٥٤١
التمهيد ٥٤٣
المبحث الأول: العربية نسبها وصراعها الحضاري ٥٤٤
المبحث الثاني: اللغة العربية ومفهوم الوطنية ٥٥٥
المبحث الثالث ٥٥٧
أولاً: الغيرة اللغوية ٥٥٧
ثانيـًا: تعلم العربية فرض عين أم فرض كفاية ؟ ٥٦٠
ثالثـًا: دعوى صعوبة العربية وكيفية التغلب عليها. ٥٦٢
الخاتمـــة ٥٦٤
فهرس المراجع ٥٦٦
فهرس الموضوعات ٥٦٧